مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد 41 – عدد4 (2025): 259-274

Damascus University Journal of arts and Humanities sciences Vol 41-No.4 (2025): 259-274

تجلّيات المكان في شعر ابن سوار الدّمشقي (ت 677هـ)

حسام موسى السمير[1*]، هناء علي سبيناتي[2]**

1-طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة دمشق.

*- Hosam.alsameer@damascusuniversity.edu.sy

2- أستاذ دكتور، قسم اللُّغة العربيَّة، اختصاص الأدب المملوكيّ، كلية الآداب، جامعة دمشق.

**- hanaa.sbenati@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

قدّم البحث صورة للمكان في شعر ابن سوار الدّمشقي بجماليّاته وتجلّياته، وقد توزع المكان عنده إلى أماكن مقدّسة وطلليّة وواقعيّة وتاريخيّة وغيبيّة، فالأدب وثيقة تاريخيّة اجتماعيّة فنّيّة، والأديب ابن ظروفه وبيئته، يذكر الأماكن التي يقدّسها ويحنّ إليها ويشتاق، ويتجلّى مكان سكن الأحبّة في شعره بعدما صار طللاً، ويصف الأماكن التي يعيش فيها والقريبة منه التي ترتبط بدينه ومعتقداته، ورسم البحث صورة هذه الأماكن من خلال رحلات خياليّة، وقد وظّف ابن سوار الشّاعر الصوفي هذه الأماكن توظيفاً دلاليّاً يخدم السّياقات التي أتت فيها، فيأتي المكان محاولة لطي المسافات، ووصل ما انقطع مع المحبوب، ومدّ جسور اللقاء والاتّصال، واستعمل رموزه الصّوفيّة وصوره البيانيّة تماشياً مع كل ذلك.

وأوضح البحث بالمنهج الوصفي والأسلوب التّحليلي أنّ هذه الأماكن تبرز التّجربة الشّعوريّة المكانيّة الفريدة للشّاعر التي تتحوّل الأماكن فيها إلى حالات نفسيّة، وانفعالات وجدانيّة، ومواقف إنسانيّة من خلال الاستعمال اللغوي، لأن المنهج الوصفي يعنى بدراسة الاستعمال اللغوي لدى شخص بعينه في زمان بعينه ومكان بعينه.

الكلمات المفتاحيّة: المكان، ابن سوار الدّمشقي، تجلّيات، مقدّسة، واقعيّة، غيبيّة.

تاريخ الإيداع:2024/12/24

تاريخ القبول:2025/02/05

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص

CC BY-NC-SA 04

Manifestations de lieu dans la poésie d'Ibn Siwar al_Dimachqi (m 677h)

Houssame Moussa Al_Samir[1*], Hanaa Ali Sbénati[2]**
1- Étudiant en doctorat, Université de Damas, faculté des lettres, département de arabic.
*-Hosam.alsameer@damascusuniversity.edu.sy
2- Professeur, Université de Damas, Faculté des lettres, département de arabic.
**-hanaa.sbenati@damascusuniversity.edu.sy

Résumé:
La recherhe a présenté une image du lieu dans la poésie d'Ibn Siwar al_Dimachqi, avec son esthétiques et ses manifestations, pour lui, le lieu était divisé en lieux sacrés, ruiniens, réels, historiques et métaphysiques, la littérature est un document historique, sociale et artistique, et l'écrivain est le fils de sa situation et de son environnement, et il mantionne les lieux qu'il sanctifie et qu'il désire, le lieu de residence de ces proches est manifesté dans sa poésie après qu'il soit des ruines, et il décrit les lieux où il vit et les proches de lui. qui sont liés á sa religion et ses croyances, la recherché a dressé un tableau de ces lieux á travers des voyages imaginaires, Ibn siwar al_Dimachqi, le poéte soufi, a utilize ces lieux d'une maniére sémantique adaptée aux contextex dans les quels ils sont apparus, le lieu est une tentative de comble les distances, et relier ce qui a été coupé á la bien_ aimée, et construire des ponts de rencontre et de communication, et il a utilize ses symboles soufis et ses images graphiques en accord avec tout cela.
La recherche, utilisant la méthode descriptive et la méthode analytique, a démontré que ces lieux mettent en valeur l'exprérience émotionn elle spatiale unique du poéte, dans laquelle les lieux se transforment en états psychologiques, en émotions, et en situations humaines.

Les most_clés: le lieu, Ibn Siwar Al, Dimachqi, Manifestations, Sacrés, Reels, Métaphisiques.

Received: 24/12/2024

Accepted: 05/02/2025

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a

CC BY- NC-SA

المقدمة:

يعدّ المكان إحدى العناصر والمكونات الأساسيّة والمهمّة في العمل الأدبي، وذلك لما يحمله من أبعاد جماليّة وفنّيّة تسهم في عملية مجرى الأحداث وبلورتها، ويحمل إيحاءات ودلالات تشير إلى القصد والمعنى الذي يحتويه النّص سواء أكان هذا النّص شعراً أم نثراً، وبصورة أخرى أصبح وسيلة تعبيريّة تعكس لنا العلاقة القائمة بينه وبين الإنسان، ومن هذا المنطلق كان حضوره في النّصوص الأدبيّة خاصة منها الشعرية حضوراً طاغياً فالمتصفح للشّعر العربي يلاحظ مدى ارتباط الشّاعر ببيئته وتأثّره بها، فكان يأخذ أشكالاً وصوراً متعددة في ذهنية صاحبه، تكشف لنا عن المعاني التي يحملها هذا العنصر في توليد القيم الإنسانيّة، لذلك كان المكان بالنسبة إلى الشاعر أرضاً خصبة للتعبير عمّا يجول في خاطره ومشاعره، ممّا جعله يتحوّل إلى غرض خاص لتلبية الدّواعي والمواقف الكامنة في نفسيّته، يرسم فيه أبعاده الاجتماعيّة والنّفسية التي تحمل في طيّاتها معالم ودلالات مختلفة تتم فيها عملية التّذكّر والتخيّل التي تجعل القارئ يتعرّف العلاقة القائمة بين المكان والشاعر، ولم يكن المكان الأثير ضرباً من التكلس الوجودي دونما إحداث تفاعلات وجدانيّة تتدفق بلا وعي نحو تشكيل علاقات استثنائيّة لا مناص من اختزانها في دواخل النفس وانتشارها واقعاً مسيطراً على حياة روّاد ذلك المكان، ويفرض القدر على الإنسان مكاناً أو أمكنة متغايرة الأثر في النّفس، فقد يكون للمكان أثر حميمي ينتهي ببناء علاقة إنسانيّة يسعد بها صاحبها كلما تذكره، وربّما يكون له وقع مؤلم في نفس صاحبه يجعله يأنف كل ما يتصل به لما فيه من لحظات مؤلمة، وسواءٌ أكان إيجابياً أثر المكان في النفس أم سلبياً فلا يمكننا بحال من الأحوال إنكار أثره وأهمّيّته لمن يفقد شيئاً مرتبطاً بهذا المكان، أو يفقد المكان عينه، إنّ طبيعة العلاقة القائمة بين المكان ومُلازِمه تبدو جليّة حينما يقضي المكان بافتراق قسري إمّا بموت أو رحيل أو نفي، عند ذلك ينطلق الحنين والشوق مندفعين للتعبير عمّا تؤججه النفس عبر لحظات شعوريّة ترنو إلى الصدق نحو هذا المكان الذي قد يتحوّل بعد هذا الفراق فيصبح أثراً بعد عين، وفي شعر شعراء العصر الملوكي يلاحظ المتتبع تجلّيات كل من المكان المقدّس والمكان الواقعي والمكان التاريخي والمكان الغيبي، فالشاعر مرتبط على نحو كبير بكل مكان من هذه الأمكنة التي يتغنّى بها وإن ابتعد عنها جغرافياً، إذ هو قريب منها نفسيّاً وروحياً.

مفهوم تجلّيات المكان لغةً واصطلاحاً:

ترجع كلمة (تجليات) في جذرها اللغوي إلى (جلا) ومن معانيها الظهور والانكشاف، وجاء في لسان العرب: ((والجَلاء والجِلاء: الكحل لأنّه يجلو العين، أي يظهرها... وقوله تعالى: ﴿فلمّا تجلّى ربّه للجبل﴾ (الأعراف– الآية:143) أي ظهر وبان... وابن جلا: الواضح الأمر، والظاهر الذي لا يخفى)) (ابن منظور، د.ت، مادة جلو) وفيه أيضاً ((وانجلى الظلام إذا انكشف، وقوله تعالى: ﴿والنّهار إذا جلّاها﴾ (الشمس–الاية:3) إذا بيّن الشمس، لأنها تبين إذا انبسط النهار)) (ابن منظور، د.ت، مادة جلو) فهذا المعنى اللغوي يمكن نقله واستعمال دلالته فيما يظهر المكان، ويكشف عنه للإنسان المتفاعل معه من خلال الذكرى والماضي، ومن خلال الحاضر الحالي.

والمكان بتعريف العلماء: ((الموضع الحاوي للشيء)) (الأصفهاني، 1991، 879)، ((وجمعه أمكنة وأماكن)) (الفيروز آبادي، 2005، مادة مكن) ((وهذا الفراغ الذي يشغله الجسم)) (البياضي، 179،1949) وردّه صاحب اللسان في جذره اللغوي إلى (كون) ملاحظاً التوهّم في الميم، فكأنه من (التمكن) دون (الكون) قال: ((... وكوّن الشيء: أحدثه، والله مكوّن الأشياء: يخرجها من العدم للوجود)) (ابن منظور، د.ت، مادة مكن) وفيه أيضاً: ((والمكان: الموضع، جمع أمكنة وأماكن، توهّموا الميم أصلاً، حتى قالوا تمكن في المكان، وهو كما قالوا في تكسير المسيل: أمسلة، وقيل: في المكان أصل، كأنّه من التمكن دون الكون)) (ابن منظور،

د.ت، مادة مكن) والمكان بتعريف النقاد والمحدثين هو: ((الحيز الإنساني الحاوي على قدر من العادات والتقاليد والصيغ الفكرية، فضلاً عن الزمن الذي يشكل بعداً حقيقياً في مقياس التحوّل لوظيفية المكان نتيجة دينامية النظرة الاجتماعية لواقع الحياة المتغيّرة باستمرار)) (سعد الجميلي، موقع إلكتروني)، ونرى النّاقد الجميلي في هذا القول يُعرض عن ردّ المكان إلى واقعه الحقيقي (الجغرافي) مقدّماً عليه تفاعل الإنسان معه والتزامه به عبر الزمن والوظيفة الاجتماعية التي يؤدّيها.

وكان جاستون باشلار سبق في تعريف المكان الفنّي إلى إقصاء المكان عن الجغرافيّة المحضة، وربطه بالإنسان مشاعره، وعواطفه، وخيالاته، وما ألفه في طفولته وسائر عمره، قال: ((وهذا المكان (الفنّي) الذي ينجذب نحو الخيال، لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مبالياً ذا أبعاد هندسيّة وحسب)) (باشلار، 1984، 31) ويرى النّاقد ياسين النصير أنّ المكان ((يعني بدء التاريخ الإنساني، فهو يعني الارتباط الجذري بسبب الكيونة لأداء الطقوس اليوميّة، لعيش الوجود، لفهم الحقائق الصغيرة، لبناء الرّوح، للتراكيب المعقّدة والخفيّة، لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال المبهمة)) (النصير، 1986، 395) ويرى أيضاً ((أنّ المكان ليس بناء خارجياً، ولا حيّزاً محدود المساحة، ولا تركيباً من غرف واسعة ونوافذ، بل هو كيان من الفعل المتغيّر، والمحتوي على تاريخ ما)) (النصير، 1986، 8)، وهذا ما ذكرته سيزا قاسم عن المكان ((من أنّه ليس فضاء سالباً خارجيّاً يقع فيه الأحداث، ولكن حامل مادي لوعي الشاعر الداخلي)) (قاسم، 2002، 58) ويعدّ المكان أحد الأسس والدّعائم في إنشاء العمل الأدبيّ، ((فالأدب الّذي يكتسب العالميّة هو ذلك الأدب الّذي يستطيع أن يتبنّاه الإنسان ويجد فيه خصوصيّته، ومثل هذا الأدب يشقّ الطّريق إلى العالميّة ولكنّه يفعل ذلك عبر ملامح قوميّة بارزة وقويّة أحدها المكانيّة)) (باشلار، 2000، 5) فتاريخ المكان تاريخ عريق في الشّعر العربيّ، تناقلته الأجيال عبر العصور، وأعادت صياغته على نحو من استلهام التّراث المتجدّد في روح المجتمع، فقد أصبح الشّعر الّذي يتعلّق بالمكان فكراً للمجتمع يجري في وجدان الأمّة جريانه على الألسنة، والمتصفّح للشّعر العربيّ القديم _وخاصّة منه شعر العصر المملوكي_ يجد أنّ المكان حظيَ باهتمام الكثير من الشّعراء آنذاك، وذلك لاحتلاله مكانة مرموقة وكبيرة في حياتهم الاجتماعيّة والنّفسيّة، ومن هؤلاء الشّعراء ابن سوار الدمشقيّ.

ترجمةُ الشّاعِر:

هو محمّد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل بن الحسن بن عليّ ابن محمّد بن الحسين، نجم الدّين، أبو المعالي الشّيبانيّ الدّمشقيّ (ديوان ابن سوار الدمشقيّ، 2009، 5) وهو عربي صليبة، يرجع نسبه إلى شيبان أرومة، ومن بني مطر ثمّ من بني معن بن زائدة، وأصله من العراق كما قال المقريزي في المقفى الكبير، ولد في دمشق ضحى يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأوّل سنة ثلاث وستمئة (في السابع عشر من شهر تشرين الأول سنة 1206م).

وقد أجمع كلّ من تحدّث عن شعره على جودته وعلوّ منزلته، قال عنه اليونيني: ((كان أديباً فاضلاً، قادراً على نظم الشعر مكثراً منه، تقع له فيه الأبيات الجيّدة والمعاني النّادرة، مدح الأمراء والكبراء وغيرهم، وأشعاره كثيرة، منها ما حذا فيه حذو الشّيخ شرف الدّين عمر ابن الفارض رحمه الله تعالى، ومنها غير ذلك)) (اليونيني، 1960، 405) وقال عنه ابن فضل الله العمري: ((كان له أدب غضّ تميل به الأغصان والقدود، وتُخلَع عليه النّفوس والبرود، أشغلَ قلب الشجيّ والخلي، فهذا غنّى وهذا ناح، وأسمع أُذن السّالي والمغرم، فهذا كتم وهذا باح)) (العمري،1988، 156).

توفّي رحمه الله ليلة الأحد رابع عشر ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وستمئة (الموافق 4 أيلول 1278م) ودفن في دمشق، شرقي باب توما. له ديوان شعر طبعه مجمع اللغة العربيّة في دمشق سنة 2009 بتحقيق محمّد أديب الجادر.

تجلّيات المكان في شعره:

تجلّى في شعره المكان المقدّس والواقعي والتّاريخي والغيبي، فالمكان يبقى في الأدب عنصراً أثيراً لأنّه منبثق من الوجدان، ويثير في النّفس ذكريات الأهل والأحبّة، ويبعث في الذّات الأمل بعدما غمرها اليأس والحرمان، وهو يمثّل ((عنصراً أساسياً من عناصر الأدب فما من عمل أدبي لا يتناول الإنسان، ولا ينطوي على قيمة تتصل بالإنسان، ولا وجود للإنسان إلّا ضمن المكان، وما من عملٍ أدبيّ يخلو من الحدث، والحدث يحدث في المكان، ثمّ إنّ المبدع يعيش في المكان، فيتأثّر به ويؤثّر فيه، وتظهر تلك التأثيرات في نفسه، وتتجلّى في عمله من غير شكّ)) (عقيل، 2019، 102).

((Un élément fondamental de la littérature, car il n'y a pas d'œuvre littéraire qui ne traite pas de l'homme, ni ne contienne une valeur liée à l'homme, et l'homme n'existe que dans un lieu, et il n'y a pas d'œuvre littéraire qui soit dépourvue d'un événement, et l'événement se produit dans un lieu, et alors le créateur vit dans le lieu, donc il en est affecté et l'affecte, et ces effets apparaissent dans son âme, et se manifestent dans son œuvre sans aucun doute)) (Aqil, 2019, 102).

ففي تجلّيات المكان المقدّس في سياق الرّحلة، أكثر ابن سوار الدّمشقي من ذكر الديار الحجازيّة ضمن الحنين إلى المنازل المقدّسة، و((يشكل المكان المقدّس محطّ أرواح البشر، ومهوى أفئدتهم، على أعتابهم يتخفّفون من آلامهم، وفيه تعرج أرواحهم، ويرتفعون إلى العالم العلوي بعيداً عن الوجود الزّائل، وقد تعلق أدباء الصّوفيّة بالأماكن المقدّسة)) (سبيناتي، 2021، 245).

(Le lieu saint est la destination des âmes humaines et la destination de leurs cœurs. Sur leurs seuils, ils trouvent un soulagement à leur douleur, et en lui leurs âmes s'élèvent, et ils s'élèvent vers le monde supérieur loin de l'existence transitoire. Les écrivains soufis ont été attachés à des lieux saints)) (Spinaty, 2021, 245).

((وهذا التّعلّق سببه أنّها تمثّل أقدس أقداسهم، فهي شهدت البعثة الوحي، أو اتصال الأرض بالسّماء، ذلك الاتصال الذي يسعون إليه بكلّ طاقاتهم)) (سالم محمّد، 1996، 174) ويحمل المكان في طيّاته معاني عميقة يتجاوز في كونه خيراً يحمل شكلاً هندسيّاً فقط، بل يعمل كوسيلة تقدم على توليد الدّلالات والمعاني للتّعبير عن الوجود الإنساني، فالإنسان من خلال المكان يتأمّل غربته ويحنّ إلى ماضيه متذكّراً الأنس والألفة، وهذا ما عبّر عنه ابن سوار الدّمشقي في حنينه الأطلالي الذي وصف فيه حياته الدّينيّة، وتنقله من مكان إلى آخر في رحلاته من عمرة وحجّ، فكانت الأطلال والحياة المنبعثة منها دالّة على هويّة الشّاعر الحقيقيّة، وعبّرت عن انتمائه إلى شتّى مناحي الحياة، وهذا ما أسبغ على المكان نوعاً من الجماليّة أضفت عليه أبعاداً اجتماعيّة ونفسيّة كان لها الأثر الواضح في بلورة مجريات الحياة التي خاضها الشّاعر، وتغيّر تلك المجريات، فأضحى المكان بذلك عاملاً لتحريك شاعريّة الشّاعر، وذلك من خلال علاقة التّلازم التي تسهم في تداعي الذّكريات لديه وتعلّقه بالمكان وما يحمله من ذكريات وأشجان.

والمثل بالمثل يتجسّد المكان وتجلّياته بالمعاني نفسها عندما يذكر الشّاعر الأماكن الواقعيّة والتّاريخيّة والغيبيّة، ففي تجلّيات المكان الواقعي يشير الشّاعر إلى أنّ الأماكن المقدّسة الواقعة في البيئة الصّحراويّة أحبّ إلى قلبه من الأماكن العامرة بالحياة والطّبيعة الجميلة مثل الشّام وحوران، وفي تجلّيات المكان التّاريخي يذكر الشّاعر أماكن مثل (النجف_ بدر_ دجلة_ حنين_ خيبر) ليسقي ظمأه إلى موروثه التّاريخي الدّيني، فابن سوار شاعر صوفي يسبغ على رموزه ذلك الرّداء الإسلامي الذي يعتز به، وينطبق ذلك أيضاً على أماكنه الغيبيّة، حيث يتخيّل رحلة افتراضيّة يجول من خلالها في الجمال المطلق والخير المطلق والعدالة المطلقة، يجول في رؤية الله تعالى في جميع مخلوقاته العظيمة التي ارتدت ثياب الحسن والجمال.

ومع انقطاع الحجّ نلمح ابن سوار في هذه الرّحلة المتخيّلة إلى البقاع المقدّسة التي يمرّ بها الحاج قاصداً البيت الحرام، سواء أكان ذلك من جهة العراق أم من جهة الشّام يرجو الشّاعر أن يكون ضمن ذلك الرّكب، يروي ظمأ أشواقه إلى لحظات قد تمنّاها ورجا حدوثها، فيقول: (من الطّويل) (الدّيوان، 2009، 191).

إذا أَقْبَلَ الرَّكْبُ الحِجازِيُّ أَقْبَلَتْ ... إِلَيَّ دَواعِي الشَّوقِ مِنْ كُلِّ جانِبِ
وراحَ فُؤادِي سائِقاً نَحْوَ قَصْدِهِمْ ... وفَـرْطُ حَنِيني سـائِقاً للرَّكـائِـبِ
معـاهِدُ أَحْبابي ومَنْزِلُ صَبْوَتِي ... ومَـرْتَـعُ أَتْـرابِي ودارُ حَـبـائِـبِي
بِحَيْثُ يَحُـطُّ الوَافِـدُون رِكابَهُم ... وَيَحظَوْنَ بالزُّلْفى ونَيْـلِ الرَّغائِـبِ
سَقَى اللهُ هاتيـكَ الأَباطِحُ ريَّهـا ... وجادَ على أَجْيادَ صَوْبَ السَّحائِبِ
وحَبَّرَ بالمـعْلـى الرَّبِيْـعُ بُرُودَه ... وحَيَّـا كُـدَاءً بالغُيُوثِ السَّواكِـبِ
حُرِمْتُ الكَرى شَـوْقاً إلى الحَرَمِ الذي ... بِهِ يَرِدُ الحُـجَّاجُ بَحـرَ المَواهِـبِ
وأَصْفى الصَّفا شَـوْقِي إليهِ وصَـبْوَتِي ... إلى المَرْوةِ العَلْياءِ مَرَّتْ مَشارِبِي
وتَجْلُو السُّتُورُ السُّودُ لي كَعْبَةَ الرِّضا ... كَبَدْرٍ تَجَـلَّى في ظَـلامِ الغياهِـبِ
وأَلْقى المُنى والأَمْنَ بالخيفِ مِنْ مِنىً ... ويَأْمَنُ خَوْفِي مِنْ جَمِيعِ المَعاطِبِ
وفي عَرَفاتٍ أَعْرِفُ القَصْدَ نَحْوَ مَنْ ... إلى ظِلِّـهِ المَمْدُودِ أَلْقَـيْتُ جانِبِي

يستهلّ الشّاعر الأبيات بالأسلوب الشّرطي، لأنّ هذه الرّحلة رحلة مُتَخَيَّلة، فإذا جاءت الرّكائب تُيَمِّمُ شطر المجاز هاجت أشواق الشّاعر من كلّ جوانحه، وأخذ حنين قلب الشّاعر يقود هذه الرّحلة إلى هاتيك الدّيار التي ترتبط بالأحباب والأتراب والصّبوة، وفي الألفاظ (معاهد، منزل، مرتع، دار) يحضر المكان حضوراً طاغياً ليتجلّى في ذكريات الشّاعر المنصرمة، ومشاعر صباه العتيقة، وها هو يدعو بالسّقيا للأباطح وأجياد، وهما من الدّيار الحجازيّة المقدّسة، وكذلك المعلى وكداء، فهذه الرّحلة تشقّ طريقها مارّةً بتلك الأمكنة حتى تصل بغيتها إلى الحرم الشّريف، فشوق الشّاعر إليه قد حرمه النّوم والوسن، ويتابع الشّاعر ذكر الصّفا والمروة رامزاً بالسّعي بينهما إلى تنقل رحلته الخياليّة بين المعاهد والمنازل، ثم تبدو الكعبة الشّريفة برتاجها الأسود لتسكب الرّضا على قلب الشّاعر حيث يقول إنّها كالبدر في غياهب الظلام وحنادسه، فالصّورة في ذلك البيت تجعل القارئ يُعمل عقله في عكسها وضدّها، فالكعبة متلألئة وضاءة ومن حلوها سواد ذنوب الحجّاج الذين أتوا يطهّرون نفوسهم، ثمّ يكون المكان مصدر أمنٍ وأمان عندما يصل الشّاعر إلى الخيف ومنى، والخيف ((هو المحصب، وهو بطحاء مكة)) (ديوان الحاجري، 2003، 32) ومنى ((في درج الوادي الذي ينزله الحاجّ ويرمي فيه الجمار من الحرم، سمّي كذلك لأنّ آدم عليه السّلام تمنّى فيها الجنّة)) (الحاجري، 2003، 36)، ثمّ يذكر الشّاعر جبل عرفات بإيحاءاته ودلالاته حيث يعرف الحاجّ أنّه يتتبع خطا الرّسول الكريم ﷺ، إنّ الشّاعر يوّظف مشهد الرّحلة بأماكنه ومراحله، ليصف شوقه حين تواتر انقطاع الحجّ بسبب غزوات الصّليبيين والمغول، وقد اتّخذ الشّاعر هذه الأماكن رموزاً لمنازل الأحوال والمقامات العليا، حيث التّجلّي الإلهي، والفيوضات الرّبّانيّة، محاولاً الوصول إلى حقيقة الوجود من خلالها، ويبدو مشهد الرّحلة إلى الدّيار المقدّسة في شعره جليّاً، فالرّحلة سلوك لازم لأيّ صوفيّ، لأنّ غايته تطهير نفسه ممّا علق بها من أدران الدّنيا، والتأمّل في الجمال المقيد وصولاً إلى الجمال المطلق، ولا أفضل من الرّحلة عنده للتجاوز والابتعاد عن المألوف والمعتاد، والانطلاق بحرّيّة في المفاوز والمخاطر من أجل الهدف المنشود، فالشّاعر قد وظّف هذه الأمكنة بتجلّياتها من

منظوره الصّوفي ليصف مشاهد طريقه نحو التّجلّي الإلهي في أقدس بقاع الأرض، وهو يقصد رحلة الحجّ بشعائرها ورموز أمكنتها، وها هو يذكر أمكنة أخرى سائراً على نهج من سبقوه، ليجعلنا نعيش معه تجربته الشّعوريّة الصّوفيّة فيقول: (من البسيط) (الدّيوان، 2009، 321).

يا جِيرَةَ الرَّمْلِ مِنْ شَـرْقِـيّ ذِي سَلَمِ هَلْ عَـوْدَةٌ لِلَيالِينا على العَلَمِ
أيَّـامَ شَمْلِي بِـكُمْ يـا سَلْـمُ مُجْـتَمِعٌ وحَبْلُ وِدِّي لديكمْ غَيْرُ مُنْصَرِمِ
وَلَّتْ بَشاشَةُ ذاكَ الوَصْلِ وانْصَرَمَتْ أَوْقاتُهُ فَكَأَنْ قَدْ كـانَ في الحُلُمِ
واليَـوْمَ لا الـدَّارُ بالجَرْعـاءِ دانِيَـةٌ بَعْـدَ البِعـادِ ولا شَمْـلِي بِمُـلْتَئِمِ
أَسْتَـودِعُ اللَّـهَ جِـيـرانَ الأَراكِ وإنْ أَضاعَ جِيرانُهُ يَوْمَ النَّوى ذِمَمِي
وحَبَّـذا البـانُ مِنْ شَرْقِيّ كاظِمَـةٍ وحبَّـذا خِيَـمٌ بالبـانِ مِنْ خِيَـمِ

يبدأ الشّاعر بالنّداء (يا جيرة الرّمل) ويستعمل ثنائيّة (ذي سلم) و (العلم) التي كرّرها شعراء كثر، واستعمال الثّنائيّة يكشف عن مدى وحشة الشاعر وحاجته إلى الرّفيق القديم، فهو يرجو عودة لليالي الوصال، واستعماله مكان (ذي سلم) تمهيد لكي يرمز باللفظ الأنثوي (سلم) أي سلمى؛ إلى الوجود المطلق، فالمرأة رمز صوفي معروف، وهو يتشوّق ويحنّ إلى أيّام الوداد والحبّ، وقد ذهبت وولّت وانصرمت، فكأن هذه الأيّام وأهلها أحلام، ويتوق الشّاعر إلى رحلة الحجّ التي حُرِمَ منها، فالآن تلك الدّيار ليست قريبة وقد فرق الدّهر شمل الشّاعر، واستعماله مكان (الجرعاء) التي هي بالدّهناء قرب جبل حزوى دلالة على التئام جرح الحنين، ذلك الجرح الذي فتقه البعاد مرّة أخرى، فأصبح الشّاعر وحيداً لا يسلو قلبه شيء، وها هو يكيل سيل المديح لجبل البان الذي يرمز إلى عظمة حزنه وأشجانه، ثمّ يذكر (كاظمة) التي هي اسم ماء، ليدلّ بها ويرمز إلى دموعه التي سكبها شوقاً وحنيناً إلى أيّامه التي انقضت، حين كان الجبل مليئاً بخيم الحجّاج المرتحلين، ويتجسّد المكان رمزاً للحنين إلى العشق، والتّشوّق الأبدي إلى ما يروي ظمأ القلوب، ويطفئ نار الجوى، فيقول الشّاعر أيضاً: (من الطّويل) (الديوان، 2009، 220).

أَحِنُّ إلى أَرْضِ الحِجـازِ ومَنْ بهـا حَنِينَ مُحِبٍّ غـابَ عَنْـهُ حَبِيبُهُ
وأَشْتـاقُـها شَـوْقَ العَـلِيـلِ لِبُـرْئِـهِ وقَـدْ كَـلَّ آسِيـهِ ومَـلَّ طَبِيبُـهُ
سَقـى اللهُ مِنْ بَطْحاءَ مَكَّـةَ مَعْهَداً يَطُولُ مِنَ المُشْتاقِ فيهِ نَحِيبُـهُ
وحَيَّـا بِهاتِيـكَ الأَبـاطِـحِ كَعْبَةً إذا حَجَّها عَبْـدٌ تُـحَـطُّ ذُنُـوبُـهُ
صَفا وِدُّ قلبي للصَّفـا وتَضاعَفَتْ إلـى ظِلِّـهِ أَشْواقُـهُ ووَصيـبُهُ
مَتى أنا في الرَّكبِ الحِجازيِّ سابقٌ على جَمَلٍ يَقْضِي مُنائِي رُكُوبُهُ

يحنّ الشاعر إلى الحجاز، وهو جبل ممتدّ حالّ بين غور وتهامة وأرض نجد، واتساعه دليل على عظم وحشة الشاعر وعلى طول طريق هذه الرّحلة المترامية الأطراف، ونلمح في الموسيقا الداخلية المنبثقة من الاشتقاق (أحنُّ_ حنينَ) تشبيه أرض الحجاز بالحبيب الغائب، ويتشوّق الشاعر إلى تلك الأرض ويدعو بالسقيا لبطحاء مكة ومنزل فيها كان يحتضن حب الشاعر، ثمّ يرسل تحياته إلى مكان داخل بطحاء مكّة وهو الكعبة، ليجعلها تجلّياً ورمزاً لمحبوبه البعيد الغائب، والاستراحة من الذنوب بعد الحج هي مثل تسلية القلب بعد رؤية المعشوق، ثمّ يأتي لنا الشاعر بالجناس التام (صفا_ الصفا) ليقول لنا إنّ صفاء فؤاده وذلك الحبّ الذي يسكن الفؤاد إنّما يحصل بعد

السّعي بين الصّفا والمروة، ويرجو الشّاعر أن يكون ضمن الرحلة الافتراضيّة يمتطي جمله، ويتوجّه نحو هذه البقاع المقدّسة، إنّ ما يُلاحَظ على هذه الأبيات هو عبور الشّاعر إلى الماضي الذي استحضره في الحاضر والاندماج فيه، فظهر الشوق إلى المكان الذي عاش فيه أيامه الجميلة وذكرياته العطرة، تلك الذّكريات التي كانت ذات صلة وثيقة بتجربته الشّعريّة والشعوريّة، فالمكان هو البيئة التي عاش فيها الشّاعر العربي بكلّ ما تشمل من مظاهر الطّبيعة، يقول أيضاً: (من الكامل) (الدّيوان، 2009، 210).

أَخَذَتْ عَلَيْهِ يَدُ الصَّبابَةِ مَوْثِقاً ... أَلَّا يَهِيمَ بِغَيْرِ ساكِنَةِ النَّقا
فَلِذاكَ لا يَصْبُو لِبَارِقَةِ الحِمى ... طَرَباً ولا يَهوى الغَزالَ مُمَنْطَقا
يا سَعْدَ هَلْ لَمْياءُ تَبْسِمُ مَوْهِنا ... أَمْ ذاكَ بَرْقُ الأَبْرَقَيْنِ تَأَلَّقا
ما كُلُّ لامِعَةٍ على أَطْلالِها ... لَكِنّني أُعْطِيتُ قَلْباً شَيّقا
ومُعَشَّقِ الحَرَكاتِ في أَجْفَانِهِ ... خَمْرٌ تَدُورُ على العُقُولِ مُعَتَّقا
يَجلُو عَلَيكَ المُنْحَنى بِعِذارِهِ ... ويُرِيكَ بالثَّغرِ الشَّنِيبِ الأَبْرَقا

فالشّاعر مأخوذ القلب وهائم في حبّ امرأة تسكن النقا، وهو وفيّ لعهد أطلقه لصبابته التي يجعل لها يداً تضعها في يده لأخذ المواثيق والعهود، وهو لا يستجيب لحب أخرى تسكن مكاناً مقدّساً آخر، فيجعل لنفسه قطبين متنافرين، وينادي حادي العيس (سعد) الذي يشكّل في رمزه إشارة إلى مرضعة رسول الله ﷺ حليمة السّعديّة، ويسأل هذا الحادي عن الحبيبة لمياء هل ما زالت تضيء عتمة الليل بابتسامتها، والمرأة في هذا البيت رمز صوفي عميق استعمله الشاعر للدلالة على الوجود المطلق، أو حب الذّات الإلهيّة، ويذكر الشاعر المكان الطّللي بتجلّياته التي تكشف عن شغف قلب الشاعر بحبّه القديم وأشواقه المستمرّة، وما ذكر الخمرة في هذه الأبيات إلّا دلالة وإشارة على حبّ الذّات الإلهيّة الذي يسكن فؤاد الشاعر، ثمّ يذكر المنحنى بفتياته الجميلات، وهذا التّجلي يكمن في مقامات الصّوفيّة وأحوالهم ومراتب العشق، فالشّاعر من خلال ذكر هذه الأماكن يعيش حالة تركت في نفسيّته حوادث كان لها الأثر الواضح على أحاسيسه ومشاعره ممّا جعله يعيش الذّكريات حتّى يجعل منها حقيقة، يسترجع بها حالته الوجدانيّة الغابرة في كلّ مكان مرَّ به، فعوالمه وأماكنه متنوّعة غنيّة بالمشاهد والأحاسيس، يقول أيضاً: (من الكامل) (الدّيوان، 2009، 423).

يَا مَنْزِلاً بَينَ العُذَيْبِ ولَعْلَعِ ... جَادَتْ رُبُوعَكَ مُزْنَةٌ مِنْ أَدْمُعِي
مَا لي أَبُثُّكَ ما أُجِنُّ مِنْ الهَوَى ... وَمِنَ الضَّلالِ خِطابُ رَسْمٍ لا يَعِي
وأَظَلُّ أَسْأَلُ فيكَ عَنْ أَسَدٍ مَتى ... حَلُّوا بِذِي سَلَمٍ وسَلْمُ بِمَسْمَعِي
إنّي إذا عَفَتِ الدِّيارُ وأَقْفَرَتْ ... لِمَعاهِدِ الأَحْبابِ غَيْرُ مُضَيِّعِ
إنّي لَرِمْلَةُ عالجٍ وحَزُونُ وا ... دِي المُنْحنى وهِضابُ سَفْحِ الأَجْرَعِ
أَشهى إلَيّ مِنَ الشّآمِ ومائِهِ الـ ... عَذْبِ الفُراتِ وإنْ يَكُنْ هُوَ مَرْبَعي
لِلَّهِ بانَةُ سَفْحَةِ الوادِي فما ... أَحلى صَرِيرَ غُصُونِها في مَسْمَعِي

يناجي الشاعر داراً بين العذيب ولعلع، والعذيب ماء بين القادسيّة والمغيثة، وهو من منازل حاج الكوفة، ولعلع منزل بين البصرة والكوفة، فهاتان بقعتان مقدّستان، بينهما دارٌ عاش الشاعر فيها ذكرى من الحبّ يسقي ربوعها بغيمةٍ ماطرة من دموعه، ويرسل مكنونات حبّه إلى تلك الدّار التي غدت أطلالاً ومن الجنون الحديث مع أطلالٍ لا تدرك مسمعاً، ويسأل الشاعر عن أناسٍ حلّوا بذي سلم، وذي سلم مكان رمز الشعراء به إلى الذات الإلهيّة أيضاً، ويذكر الدّيار ومعاهد الأحباب التي لو أصبحت مكاناً قفراً فإنّه

لن ينساها، ثمّ يقول إنّ هذه الأماكن (رملة عالج_ حزون وادي المنحنى_ هضاب سفح الأجرع) أحب إلى قلبه من مسكنه الرّغيد في الشام، وإنّ أصوات اصطفاق غصون أشجار البان وحفيف أوراقها يرنّ في مسمعه بكلّ حسن وجمال، وها هو أيضاً يستعمل رموزاً أخرى في شعره فيقول أيضاً: (من الطويل) (الديوان، 2009، 333).

أَجَلْ زَارَ طَيْـفُ العَامِـرِيَّة مَرْقَـدِي يَجُوْبُ الفَيَافِيْ فَدْفَداً بَـعْدَ فَدْفَدِ
وَكَيْفَ مَزَارُ الطَّيْفِ مِنْ دَارَةِ الحِمَى مُعَـرِّسَ رُكْبَـانٍ بِبُرْقَـةِ ثَهْمَـدِ
سَرَى فَأَضَاءَ اللَّيْلَ حَتَّى اهْتَدَتْ بِـهِ رَكَائِـبُ شَتَّى مُتْهِماً بَعْدَ مُنْجِـدِ
فَقُلْتُ الصَّبَا أَهْدَتْ نَسِيْمَاً إِلَى الحِمَى تَحَمَّلَ عَرْفَاً مِنْ شَذَا قُرْبِهِ النَّـدِي
أَلَسْتَ تَـرَى نَـاراً بحَـوْرَانَ أُضْرِمَتْ يَشُبُّ لَظَاهَا مُوَّقِـداً خَيْـرَ مَوْقِـدِ
وَتَبْدُو لَهـا بِالغَـوْرِ خَضْـرَاءُ دِمْنَـةٍ فَتَذْهَلُ عَنْ مَرْعَىً بِنَجْـدٍ وَمَوْرِدِ

ها هو طيف العامريّة قد زار الشاعر في الحلم، والعامرية رمز لمطلق الحبيبة، وينتقل هذا الطّيف في البيد والصحارى فيمرّ بالحمى قرب المدينة ويهتدي به الرّكبان نحو برقة ثهمد وهو يتهم وينجد، فيقول الشاعر إنّ ريح الصّبا أرسلت نسائمها نحو الحمى، نسائم معطّرة بالأريج والعبير، ويقول إنّ الرّكب قد أوقدوا في طريقهم من الشام نحو الأراضي المقدّسة ناراً في أرض حوران ظهرت من نور نيرانها أراضٍ ومياه في مكّة ونجد، وهكذا تتمثّل الأمكنة المقدّسة والطّلليّة والواقعيّة تحكي شوق الشاعر إلى رحلة حجّ أو عمرة، فالأماكن وإن تعدّدت مسمّياتها، فإنّها تنهل من روح صاحبها، وتبيّن موقفه من العالم والمحيط، ذلك الموقف المرتبط بأحاسيسه ومشاعره، وقد ارتبطت الأماكن المقدّسة عنده برغبته الشّديدة في الاتصال بتلك المنازل والمعاهد، ومحاولته التّقرب من تلك البقاع تنفي اغترابه، لأنّها تعيد الإنسان إلى الألفة الأوليّة التي تهدأ عندها الرّوح وتستقر، وعلاقته بهذه الديار المقدسة والواقعية أيضاً علاقة تفاعل ومحبة، لأنها مكان يضج بالحركة والحياة، ومظاهره تذكي تجاربه وذكرياته في حالتي البعد والقرب، يقول أيضاً: (من البسيط) (الديوان، 2009، 568).

أَكَوْكَبٌ ما أَرى أَمْ بـارِقٌ سـارِي أَمْ نارُ لَـيْلى بِذاتِ الشِّيْحِ والغـارِ
يا سَعْدُ دَمْعِي بِفَيضِ الدَّمْعِ مُنْهَمِرٌ كَيْما يَـراهُ فَهَلْ آنَسْـتَ مِـنْ نـارِ
ما كُلُّ بَرْقٍ سَرى مِنْ نَحْوِ كاظِمَةٍ كَـلَّا ولا كُـلُّ نـارٍ نـارُ سُمَّـارِ
فَصِرْتُ أَذْكُرُ دارَ الحَيِّ مِنْ إِضَمٍ وبانَـةُ الجِـزْعِ كِتْمانـاً لِأَسْـرارِي
وذِكْرُ لَيْلى وجِيْـرانِ العَقِيقِ ونِيْـ يرانِ العريضِ عليكمْ بَعْضُ إِسْرارِي
أَكْنِي بكاظِمَةٍ عَنْ دارِكُـمْ وكـذا أَقُولُ لَيْـلى وأَنْتُـمْ عَقْـدُ إِضْمـارِي

يتساءل ابن سوار بينه وبين نفسه هل رأى فرقداً؟ أم رأى شهاباً؟ أو رأى نار ليلى في ذات الشّيح والغار، وليلى أيضاً مطلق الحبيبة، أو رمز للوجود المطلق، ثم يسائل سعداً حادي العيس إن كان رأى تلك النّار التي جعلت دموع الشاعر تنسكب غزيرة، فما كلّ ضوء بان من جهة كاظمة، وما كلّ نار هما ضوء الأحباب ونار الأصدقاء الذين هاج شوق الشاعر إليهم، فراحت ذكرياته تنساب عن ديار إضم والجزع، وهما موضعان في نجد، ويسائلهما أن يخبّئا أسرار حبّه، فتذكّره لحبيبته وجيرانه العتيقين في العقيق قد هيجا ما في جوانحه من مكنونات العشق، وها هو يصف حبّه الحقيقي الواقعي، فكاظمة هي رمز خفي مبطن لديار حبيبته الحقيقيّة، وليلى أيضاً اسم مستعار لحبيبته الحقيقيّة فيمتزج في فؤاد الشاعر عشقان حقيقيان قد لوعا كبده، وأسالا فيض دموعه،

ويرمز أيضاً بالنّار التي ذكرها أكثر من مرة إلى نيران أشواق قلبه المشتعلة، وما له إلّا الدّموع للتنفيس عن داخله المكلوم، والرّكب المتخيّل لكي يبلّغ وجده وغرامه، وهو لا يفتأ يذكر الحادي العيس والبارق والرّكبان، والأماكن التي اشتاق إلى زيارتها، فيقول أيضاً: (من الرجز) (الديوان، 2009، 127).

غَنَّى لها الحادِي بِسَلْـعٍ وقُبـا فَمَدَّتِ العِيسُ خُطاهـا طَرَبـا
وهَاجَهـــا مِـنَ العَقِيـقِ بـارِقٌ سَلَّ على الظَّلْماءِ سَيْفاً مُذْهَبا
وَادَّكَـرَتْ مـاءَ عُيُـونِ حَمْـزَةٍ فاتَّخَذَتْ مـاءَ العُيُونِ مَشْرَبـا
أَخَذْنَ عَنْ رِيفِ الشَّـآمِ جانِبـاً وَحِدْنَ عَنْ غَيْرِ الحِمى تَجَنُّبا
يـا حادِيَيْهـا اسْتَبْقِيـا أَرْمَاقهـا تَرْمُقُ مـاءً باللِّـوى وعُشُبـا
واسْتَوْضِحا الرُّكْبانَ دُونَ تُوضِحٍ هَلْ شاهَدُوا دُونَ الأَثِيلِ عَرَبا
وسَلِّمـا مِـنْ كَثَـبٍ عَنِّـي إذا شارَفْتُمـا بـانَ الحِمى والكُثْبا
يا جِيْرَةَ الـوادِي الذيـنَ أَوَدُّهُمْ هَلْ عـائِدٌ منكُمْ وِدادٌ ذَهَبـا

ها هو الشاعر يحمّل النّاقة أبعاد اشتياقه ويشركها في تجربته الشّعوريّة، فالحادي يغني لها في سلع وقبا بين البصرة ومكّة، والنياق توسع خطواتها وتسرعها وهي طَرِبة من صوت هذا الحادي، وقد حرّك مشاعرها بارق من جهة العقيق قرب المدينة المنوّرة، إنّ هذه النياق انطلقت من أرياف الشـام نحو الحمى، ويخاطب الشـاعر الحاديين _والتثنية رمز للأنس والألفة_ أن يسـقيا هذي النياق من ماء وادي اللوى ويطعماها من كلئه، وأن يسائلا الركبان في توضح هل رأوا قافلة بين تهامة والمدينة؟، وأن يبعثا من قلبه سلاماً إلى هذه الأماكن إن قَرُبَ سـيرهما من كثب الحمى، ويسـائل جيران الوادي الذين هم أحبابه هل سـيرجع منهم ذلك الوداد والحبّ الذي ولّى، ثمّ يكمل الشاعر حكاية شجوه وأشجانه مع هذه الأماكن، فيقول أيضاً: (من الكامل) (الديوان، 2009، 571).

أَشَجـاكَ بَـرْقٌ بـالغُوَيْـرِ تألّقـا أَمْ هَـلْ أَتاكَ خَيـالُ ساكِنَةِ النَّقا
يَصْبُـو إذا هَبَّ النَّسِيمُ مِنَ الحِمى ويَحِـنُّ إنْ بَـرْقُ الثَّنِيَّـةِ أَبْرَقـا
أَشْتـاقُهُمْ مِـنْ ذي الأَراكِ ودارُهُـمْ بالحَزْنِ نازِحَةٌ فَكَيـفَ المُلْتَـقى
يا مُوْضِعَ الوَجْناءِ حَيّ بِذِي الغَضا عَنِّي العُرَيْبَ إذا عَرَضَت مُشَرّقا

يسائل الشاعر نفسه هل شجاها برق مضيء من الغوير أو زارها طيف الحبيبة التي تسكن في النّقا، والشاعر تهيج مشاعره إذا هبّت نسائم من الحِمى ويهيج حنينه إن لمع برق في الثّنيّة، فهو يوظف أيضاً ثنائيّة البعد والقرب فيشتاق إلى أحبابه من موضع وهم في مكان آخر فيتساءل: كيف يكون الملتقى وإطفاء نار الشوق؟ ويرسل تحياته بطريقة غير مباشرة إلى أحبته في ذي الغضا، ويشكل روي القاف حرقة قلب الشاعر، واستعماله للجمل الإنشائية من الاستفهام والنداء يعزز الثنائية السابقة، فهو يشكل من شخصه ثنائية تجعله يستأنس بقرب مزيف للحبيب الرفيق، وهو في أبيات أخرى يعيد هذا التشكيل بطريقة أخرى أكثر طرباً وقرباً إلى النفس، فيقول: (من البسيط) (الديوان، 2009، 159).

يا عاذِلِي يَوْمَ وادِي المُنْحَنى سَفَهاً ما ضَرَّ مَنْ عَذَلَ المُشْتاقَ لَوْ عَذَرَهْ
هِيَ الدِّيارُ فَـذَرْ دَرَّ الدُّمـوعِ بهـا والعَيْـنُ تَنْثُـرُ فـي أطلالِهـا دُرَرَهْ
وأَنْتُمـا يـا سَمِيرَيَّ انْعِمـا وقِفـا بالجَزْعِ حَيْثُ يُلاقِـي بانُـهُ سَمُـرَهْ

حيَّا الحيا كُلَّمـا لاحَــتْ بَوارِقُــهُ رَبْعاً بِجِزْعِ النَّقا أعْفى البِلـى أَثَـرَهْ

إنّه يخاطب عاذله على يوم قضاه مع أحبابه في وادي المنحنى، ويطلب منه الإعذار، وهذا العاذل اصطنعه من داخل نفسه لأنّه يكمل ويقول دع ذرف الدّموع في هذه الديار وأطلالها التي غدت قفرة، ثمّ يعيد محاكاة لوقوف امرئ القيس ويعيد الثنائية بشكل مختلف آخر بقوله: (يا سميريَّ) فهو يطلب منهما الوقوف بالجزع، ونلحظ هذا الهدوء والصمت الجنائزي في هاء السكت، والاضطراب وعدم الاستقرار في روي الهاء قبلها، وتحكي الحاء الهامسة في الشطر الأول من البيت الأخير حنين الشاعر، وكذلك ترمز العين في الشطر الثاني إلى لوعة فؤاده، يقول أيضاً: (من الرمل) (الديوان، 2009، 456).

أَيُّها الرَّكْبُ قِفُوا لي بالنَّجَفْ حَيْثُ أَنْوارُ الهُدى تَجْلُو السُّدَفْ
وَالْثُموا الأَرْضَ التي قَدْ بَلَغَتْ بِأَبِي السِّبطَيْنِ غايـاتِ الشَّـرَفْ
فـارِسُ الدِّجْلَـةِ إذْ سَلْمـانُكُمْ عندمـا ذَكَّـرْتَـهُ ذاكَ اعْتَـرَفْ
سَلْ بِبَدرٍ عَنْهُ يُنْسِيكَ الوَغى مَـنْ لأَعْنـاقِ عِدا اللهِ قَصَـفْ
ثُمَّ سَلْ مَـعْ سَيِّدِ الكَوْنَيـنِ إذْ هَرَبُوا يَـوْمَ حُنَيْنٍ مَـنْ وَقَـفْ
وسَلُـوا خَيْبَـرَ يُخْبِـرْ أَنَّـهُ بِنَباهُ هاتِـفُ الأُفْـقِ هَتَـفْ

يوظّف الشاعر هذه الأبيات تجلّيات المكان التاريخي، فيطلب من الركب الوقوف في النجف مكان دفن سيّدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ثمّ يظهر تجلّي موضع بدر وهي عين ماء شهدت الغزوة المعروفة في السابع عشر من رمضان في العام الثاني للهجرة، كما يذكر غزوة حُنين، وهي غزوة مشهورة أيضاً وقعت في الثالث عشر من شوال في السنة الثامنة للهجرة في وادي حنين بين مكة والطائف، وكذلك غزوة خيبر التي جرت أحداثها في السنة السادسة للهجرة، ففي النجف تتجلى أنوار الهدى من فتى الإسلام أبي الحسنين سبطي رسول الله ﷺ، إنّه يطلب التساؤل عن بطولة الإمام علي رضي الله عنه في هذه الوقعات، وهروب الخصم أمام ضربات سيوف المسلمين، ويوجّه الشاعر هذه التساؤلات إلى الأمكنة بعينها، فيجعل منها الشاهد الحيّ على ما أراد قوله والذهاب إليه، فالمكان التاريخي يحفظ بجغرافيّته واسمه تلك الحوادث، والأدب وثيقة اجتماعيّة تاريخيّة فنّية تنقل تجارب الأمم والأفراد وتوثّق هذه التجارب، والشاعر ابن بيئته وظروفه، فابن سوار بتوظيفه المكان التاريخي يجعل له بعداً ملحمياً إسلاميّاً، يقول أيضاً: (من مخلع البسيط) (الديوان، 2009، 453).

شَـطَّ بـأَحْبـابِـهِ المَـزارُ فَـقَـلْـبُـهُ لـلـنَّـوى مُطـارُ
مُتَيَّـمٌ لَـمْ يُطِـقْ قـراراً والصَّبُّ مَن خـانَهُ القَـرارُ
يا صـاحِبَيَّ الغَـداةَ عُوجـا فَما على المُسْتَهـامِ عـارُ
سَـلا بُرَيْقـاً سَـرى بِنَجْـدٍ عَنْ ظُعُنِ الحَيِّ أَيْنَ سارُوا
بـانُوا فَبَيْنَ الجُفُـونِ مـاءٌ وفي حَنايـا الضُّلُـوعِ نـارُ
لَمْ نَـرَ مِـنْ قَبْلِـهِمْ بُـدُوراً حَجَّبَهـا بـالـنَّـوى سِـرارُ
راحُوا بِقَلْبِي فَصارَ صَدْرِي كَـأَنَّـهُ بَعْـدَهُـمْ دِيـارُ

إنّ المزار الذي يحتضن الأحباب قد غدا بعيد المنال، وقلب العاشق قد آلمه البعاد، والعاشق هائم لم يستطع اتخاذ قراره، ويعيد الشاعر استعمال الثنائيّة (يا صاحبيَّ) ويطلب منهما السؤال عن الأحباب في نجد، إنّهم قد رحلوا ففاضت الدموع من الجفون

واشتعلت النيران بين الضلوع، فالشاعر يجعل مكاناً في نفسه يخبّئ فيه حزنه وحنينه واشتياقه، فبعد رحيلهم صار صدره كأنّه مكان واسع يحتضن ذكريات الحبّ والهيام، إنّ تجلّيات المكان الذي قد اصطنعه الشاعر تبدو في إسباغ صفات المكان الواقعي على أماكن استقرار مشاعره وأحاسيسه، ويعبّر عن هذا الأمر بالذات حين يقول أيضاً: (من الكامل) (الديوان، 2009، 455).

ظَعَنَتْ بِمُسْكَةِ قَلْبِكَ الأَظْعانُ ونَأَوا فَحَلَّتْ عِنْدَكَ الأَشْجانُ
وجَفَوا مَنازِلَهُمْ بِمُنْعَرِجِ اللِّوى فَجَفَتْ لَذِيذَ رُقادِها الأَجْفانُ
وتَيَمَّمَتْ حَزْنَ الرَّوادِفِ عِيسُهُمْ فَأَضاءَ مِنْ أَنْوارِهِمْ لُبْنانُ
يا راحِلينَ وفي المَحاجِرِ والحَشا لِنَواهُمُ الأَمْواهُ والنِّيرانُ
إنْ أَوْحَشَتْ أَوطانُكُمْ لِفِراقِكُمْ فَلَكُمْ بِقَلْبِ مُحِبِّكُمْ أَوطانُ

لقد شدت الأظعان حبال الرحيل وابتعدت، فسكنت الأحزان نفس الشاعر، وصارت ديارهم في منعرج اللوى نائية جافية، فهجرت عيون الشاعر النوم الذي لم يعد يجد طريقاً إليها، يستعمل الشاعر الأجفان مكاناً لسكن الحزن، ويستعمل مكاناً بعيداً قليلاً عن الشام هو (لبنان) الذي أضاء من أنوار الركب الميممين نحو الأماكن المقدّسة، ثمّ يقول إنّ العيون والقلوب قد اشتعلت فيها النيران لنأي الراحلين، ثمّ يستعمل الأسلوب الشرطي فإذا أصبحت أوطان الراحلين وديارهم مقفرةً بعد رحيلهم فإنّ قلب الشاعر الذي يكن لهم كل ودّ هو وطنهم الذي يحتضنهم، ونرى في هذه الأبيات أنّ الشاعر مزج بين المكان المقدّس والواقعي والغيبي مشكّلاً لوحة قلّ نظيرها، يقول أيضاً: (من الطويل) (الديوان، 2009، 471).

أَلَا مُبْلِغٌ أَهْلَ الشَّآمِ سَلامِي ومُخْبِرُهُمْ عَنْ لَوْعَتِي وسِقَامِي
ومُهْدٍ لِجِيرانِ المُصَلَّى تَحِيَّةً كَنَشْرِ الصَّباحَاتِ بِعَرْفِ خُزامِ
أَأَحْبابَ قَلْبِي بِالشَّآمِ وقَلَّما رَعَيتُمْ جُنُونِي فِي الهَوى وهُيامِي
أَتَرْضَونَ أَنْ قَدْ شَطَّتْ الدَّارُ وَارْتَمَتْ بِيَ العِيسُ أَقْصَى غايَةِ المُتَرامِي
وجازَتْ رِكابِي أَجْرُعَ الخَيْفِ وَابْتَعَتْ أُعَيشابُ وادِي سُرْدُدٍ وسِهامِ

يهدي الشاعر سلامه إلى أهل الشام ويخبرهم عن معاناته وكذلك يهدي هذه التّحيّة لجيران المصلّى ويقول لأهل الشام: هل ترضون لي ذلك القدر الذي يعجبني وأبتغيه بأن أنأى عنكم وتأخذني النياق إلى الأماكن المقدّسة حيث تزهر الأجواء ويخضر الربيع؟ إنّ الشاعر يقلب مفهوم الرحيل الحزين ويجعله رحيلاً مبهجاً تفرح له الطبيعة ويُسَرُّ له النّاس، فيتجلّى المكان أيضاً بشكل مقلوب فبعدما يبين الشاعر لوعته في مكان إقامته، يُرجع برء مرضه إلى الرحيل من داره والنّأي عنها، يقول أيضاً: (من الطويل) (الديوان، 2009، 477).

سَلا دَارَها بالشِّعبِ مِنْ مُنْحَنى قَلْبِي ولا تَسأَلا عنها الخِيامَ على الشِّعبِ
لها مَطْلَعٌ في كُلِّ قَلْبٍ مُقَدَّسٍ مَتَى ظَهَرَتْ أَمْسَى عليها هُدى الرَّكبِ
سَقى الجِزْعَ مِنْ كَلْمى هَواها كَلامُها وبالحُبِّ يُؤْسى ما جَنَتْهُ يَدُ الحُبِّ
أُحِبُّ الحِمى مِنْ أَجْلِ خَيْماتِ قَوْمِها وأَهْوى لِحُبِّي ذِكْرَها أَلَمَ العُتْبِ

يمتزج في هذه الأبيات حب الشاعر وهواه وعشقه والود الذي يكنّه للحبيبة مع حنينه واشتياقه إلى الجزع والحمى وباقي الديار المجازية، ولعلّ التورية في قوله (منحنى قلبي) قد كان أثر كبير في هذا المزج الذي يدلّ على قدرة شاعريّة كبيرة، إنّ هذه الحبيبة

واقعيّة كانت أم خياليّة تسبغ صفات الجمال على هذه الأماكن التي قد ذكرها الشاعر، يقول أيضاً: (من الكامل) (الديوان، 2009، 488).

هاجَتْ غرامَكَ بالعَقِيقِ الأَرْبُعُ فَسَقَتْ ثَراهـا العَنْبَرِيَّ الأَدْمُـعُ
أَطْلالُ واضِحَةِ المَباسِمِ حُسْنُها رَوْضٌ بِهِ حَـدَقُ البَرِيَّـةِ رُتَّـعُ
أَغْزالَةَ الحيّ التـي قَلْبي لهـا مِنْ دُونِ أَجْـزاعِ الثَّنِيّةِ مَرْتَـعُ
ما بالُ طَرفي لا يَزالُ ودَمْعُـهُ لَكِ بَعْدَ ما سَرَتِ الظَّعائِنُ شُرَّعُ

يخلط الشاعر هنا بين المكان المقدّس والطّللي، فهذه الربوع في العقيق قد حركت مشاعر الشاعر وأبكت عينيه، ويتغزل الشاعر بحبيبته ويبين أنّ قلبه مشغول بها من دون الأخريات، ودموعه قد سالت بعدما سرت الظعائن نحو الديار الحجازيّة، وتجلّيات المكان في هذه الأبيات قد خدمت غرض الشاعر الغزلي ووضّحت ودّه الغافي في فؤاده، فملعب الحبيبة بين جوانح الشاعر كالمراتع الواسعة، ويقول أيضاً في تجلّيات المكان الغيبي: (من الطويل) (الديوان، 2009، 92).

أراهُ بأَوْصافِ الجَمالِ جمِيعِها بِغَيْرِ اعْتِقادٍ فـي الحُلُولِ المُبَعَّـدِ
وفي الرَّوحِ والأَنْهارِ والرَّوحِ والنَّدى وفي كُلِّ بُستانٍ وقَصْرٍ مُشَيَّـدِ
وفي الرَّوضَةِ الغَنَّاءِ غِبَّ سمائِهـا يُضاحِكُ نُورَ الشَّمسِ نَوَّارُها النَّدي
وفي الشَّمسِ تَحكِي في تَبَرُّجِ نُورِها لَدى الأُفُـقِ الشَّرقـيِّ مِرْآةَ عَسْجَـدِ
وفي البَدْرِ بَدْرِ الأُفُـقِ لَيْلَـةِ تَمِّـهِ جَلَتْهُ سَمـاءٌ مِثْـلُ صَـرْحٍ مُمَرَّدِ

يقصدُ الشاعر الخالقَ سبحانه وتعالى فهو يشاهده في هذه المظاهر الجماليّة جميعها بلا اعتقاده بالحلول والاتّحاد اللذين لا يؤمن بهما، فهو يرى أفعال الخالق وجمال صفاته في كلّ دوحة ونهر، وفي البساتين والقصور المشيدة، والحدائق الغنّاء، وفي الشمس والقمر، فيتجلّى المكان الغيبي في هذه الأبيات في أنّ هذه المظاهر الطبيعية يسكن فيها جمال خلق الله وروعته، ومن جمال هذه المظاهر يستنبط الشاعر الأدلة والبراهين على وجود الله الذي يؤمن الشاعر به وحده.

الخاتمة ونتائج البحث:

ومن سياق ما تقدّم فإنّ صفوة القول أنّ تجلّيات المكان في شعر ابن سوار الدّمشقي قد شملت المكان المقدّس والطّللي والواقعي والغيبي، وقد جاء ذلك جلّه في غرض التشوق إلى الأماكن المقدّسة ممتزجاً بالغزل والشعر الدّيني، فطغت قيمة الجمال على هذه الأماكن، فالشاعر نهل من الحب والجمال والشوق والحنين، وارتبط المكان المقدّس عنده بالنّقاء والطّهر، كما مزج الشاعر الرموز الصوفيّة مثل رمز المرأة ورمز المكان في هذا الشعر، ومن ذلك تبرز جملة من النّتائج:

1_ أكثر الشاعر من ذكر الأماكن المقدّسة، وأراد بذلك إيصال الدّلالات الصّوفيّة الرّوحيّة العميقة، وأراد بالمكان المقدّس في أكثر من موضع الرمز إلى مقامات الصّوفيّة وأحوالهم الرّوحيّة.

2_ مزج الشاعر تجلّيات المكان الطّللي مع المقدّس في لوحات شعريّة جميلة خلطها بغرض الغزل أيضاً رامزاً ببعض الأماكن إلى الوجود المطلق، وببعض الأسماء الأنثويّة إلى مطلق الحبيبة.

3_ أبرز الشاعر في شعر المكان المرتبط بالمكان المقدّس ثنائيّة (البعد_ القرب)، كما ظهر في أشعاره ثنائيّات أخرى أراد من خلالها بثّ روح الأنس والألفة.

4_ ارتبط المكان التاريخي لديه بالروح الإســـلاميّة، وارتبط المكان الغيبي بإظهار الجمال المطلق وجمال للوجود الحق في مظاهر الكون الجماليّة.

وأخيراً، تعدّدت أنواع المكان في شعر ابن سوار الدّمشقي، بين مكان مقدّس وطللي وواقعي وتاريخي وغيبي، وهي أماكن قد وظّفت توظيفاً دلالياً يخدم السياقات التي وردت فيها، فيأتي المكان محاولة لطيّ المسافات، ووصل ما انقطع مع المحبوب، ومدّ جسور اللقاء والاتصال.

التمويل:

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل:(501100020595).

المصادر والمراجع:

1_ القرآن الكريم.

2_ البياضي، أحمد بن حسن، إشارات المرام، تحقيق يوسف عبد الرّزاق، نشر البابي الحلبي، 1949م.

3_ النصير، ياسين، إشكالية المكان في النص الأدبي، منشورات دار الثقافة والإعلام، بغداد، الطبعة الأولى، 1986م.

4_ الزبيدي، محمّد بن محمّد المرتضى، تاج العروس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، الكويت،1984م.

5_ سبيناتي، د. هناء، تجليات المكان في شعر عائشة الباعونية (ت 922 هـ)، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيّة، المجلد 37، العدد الأول، 2021م

6_ باشلار، جاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، بغداد، الطبعة الثانية،1404هـ_ 1986م.

7_ الحاجري، حسام الدين، ديوان بلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام، تحقيق: د. خالد الجبر، د. عاطف كنعان، كلية الآداب، جامعة البترا الخاصة، عمان، الأردن، 2003م.

8_ ديوان نجم الدين بن سوار الدمشقي، تحقيق محمد أديب الجادر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق 1430هـ_ 2009م.

9_ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، 1380هـ_ 1960م.

10_ قاسم، سيزا، القارئ والنص، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م.

11_ الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 2005م.

12_ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.

13_ محمد، د. محمود سالم، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،1417هـ_ 1996م.

14_ العمري، ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، إستانبول،1408هـ_1988م.

15_ الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ.

16_ عقيل، د. هبة عبد الوهاب، المكان في شعر شعراء طبقة الإسلاميين السادسة من طبقات ابن سلام الجمحي، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 35، العدد الأول، 2019م.

17-Le lieu dans la poésie des poétes de la sixiéme classe islamique d'Ibn Sallame Al-Joumahi, Dr.Hiba Abdél,Wahhab Akil, Magazine des artes et des sciences humaines de L'Université de Damas,volume35,dossier1, 2019g

18-Manifestations de lieu dans la poésie d'Aisha Al, Baauniyya (m 922 h), Dr. Hanaa Sbénati,Magazine des arts et des sciences humaines de l'Université de Damas, Volume 37, dossier 1,2021g.

19_ سعد الجميلي_ الموقع الإلكتروني www.arab-eny.erglhtml